الفصل التاسع

الشخصية بين الوراثة والثقافة

الشخصية بين الوراثة والثقافة

يختلف المنظِّرون في ميدان نظريات الشخصية في مدى الاهتمام الذي يولونه للعوامل البيولوجية والعوامل الثقافية في نمو وتشكيل الشخصية، فهناك من يرى أن التأثير الأكبر للعوامل البيولوجية، في حين يؤكد البعض الآخر على العوامل الثقافية ومساهمتها البالغة، وفيما يلي عرضًا لهذه التوجّهات النظرية.

لتكن البداية بـ «فرويد»، يرى «فرويد» أن الـ(هو) هو النظام الأصلي للشخصية، ويتكون الـ(هو) من كل ما هو موروث وموجود سيكولوجيًّا منذ الولادة بما في ذلك الغرائز. حتى (الأنا) يراها جزءًا من الـ(هو) هدفه تحقيق أهداف الـ(هو) فقط، فكل قوّته مستمدة من الـ(هو)، وليس له وجود منفصل عنه، كما أنه لا يحقق الاستقلال التام عن الـ(هو)، ودوره ينحصر في التوسّط بين المطالب الغريزيّة للكائن الحي وظروف البيئة المحيطة.

وعند «فرويد» فإن غرائز الـ(هو) هي القوة الدافعة للشخصية، فهي لا تحرّك السلوك فحسب، وإنما تحدد أيضًا الاتجاه الذي يأخذه السلوك، وعنده أيضًا، فإن المصادر البيئية للاستشارة تقوم بدور أقل أهمية في ديناميات الشخصية بالقياس إلى الغرائز الفطرية. وتكون جميع الغرائز مجمعة المجموع الكلي للطاقة النفسية المتاحة للشخصية، وكما سبق أن ذكرنا، يختزن الـ(هو) هذه الطاقة كما أنه مركز الغرائز ومستقرها. ويرى أن الغريزة الجنسية - بوصفها الغريزة الرئيسية إلى جانب العدوانية- ليست غريزة واحدة بل غرائز متعددة، أي أن هناك عددًا من الحاجات البدنية المنفصلة تؤدي إلى قيام رغبات شبقيّة لكل منها مصدره في مناطق مختلفة من الجسم، ويشار إليها بصيغة الجمع باسم المناطق الشبقية، والتي تصف لنا مراحل النمو كما افترضها، حيث تتحدد كل مرحلة من النمو من جانب منطقة محددة من الجسم (ك. هول، ج. لندري، ترجمة: فرج أحمد فرج وآخرون، ١٩٦٩، ٥٣ - ٨٠).

إذن، «فرويد» يعطي الأهمية البالغة للغرائز/ القوي البيولوجية في تشكيل الشخصية مقارنة بالعوامل الثقافيّة، فالثقافة عنده تكشف عن الطبيعة البيولوجية للإنسان،

فالاختلافات في الثقافة هي في نظره أقلّ أهمية من المظاهر العامة لجميع الثقافات، والتي تظهر كنتيجة لهذه المعطيات البيولوجية. وهو ينظر إلى المراحل النفسيّة الجنسية باعتبارها أنماطًا عامة قد حددت بيولوجيًا بحيث توجد بصرف النظر عن النظام الاجتماعي الذي تنمو فيه. والأنظمة الاجتماعية ذاتها هي نتاج العوامل البيولوجية (**ريتشارد س: لازروس، ترجمة: سيد محمد غنيم، ١٩٨٤، ٢٠٨**).

أما الفرويديون الجدد فقد قبلوا بالمعطيات البيولوجية، لكنهم رفضوا تأكيد «فرويد» البالغ على المحددات البيولوجية للشخصية، وعبروا عنها بمصطلحات اجتماعية، كما يذكر «لازاروس» وعلى ذلك فرغم عدم رفضهم للمعطيات البيولوجية، فإن هذه المعطيات قد وجهت بوضوح تجاه الوجود الاجتماعي للإنسان (**المرجع السابق، صـ ٢٠٨**).

ومن بين هؤلاء «كارون هورني» التي أكّدت على السياق الاجتماعي للنموّ، إذا افترضت أن خبرات الأطفال المتنوّعة تنتج أنماطًا مختلفة من الشخصيات والصراعات، وأكدت الآثار المزعجة للإحساس بالعزلة أو الضعف، وتنمو هذه الانفعالات خلال التفاعلات المبكّرة بين الطفل والوالدين التي تعوق النمو الداخلي للفرد. (لندا ل. دافيدوف، مرجع سابق، ٥٨٩) لقد رأت «هورني» أن خبرات الناس تختلف من بلدٍ إلى آخر، ومن زمنٍ إلى آخر، وكذلك ما يواجهون من مشكلات؛ ومن هنا فلابد أن تكون هذه المشكلات مرتبطة بالعوامل الثقافية أكثر من ارتباطها بالعوامل البيولوجية، كما ذهب إلى ذلك «فرويد»، أي أن ما يخبره الشخص اجتماعيًّا سواء أكانت لديه مشكلات نفسية أم كان خاليًا منها سوف يحدد نوع هذه المشكلات.. إن الصراع ينشأ عن الظروف البيئية ولا ينشأ نتيجة لمكوّنات متعارضة في النفس أو التعقّل الـ(هو) و(الأنا) و(الأنا الأعلى) كما ذهب إلى ذلك «فرويد». (جابر عبد الحميد جابر، ١٩٨٦، ١٣٢) تأسيسًا على كتابات فرويد الأخيرة أخذ فريق من المحللين النفسيين يبحثون عن إعادة التوازن المفقود في الفرويدية الكلاسيكية عبر التركيز على نمو (الأنا) وتطوّر وظائفها وهو ما أصبح معروفًا بعلم نفس (الأنا). ويأتي «اريك أريكسون»، بكتاباته وممارساته العيادية كواحد من أهم الذين ساهموا في تطوير علم النفس أثناء (الأنا) ويعدون نظريته في نمو (الأنا) من أهم النماذج في مجال نمو الشخصية.

وقد مثّل تصوّر أريكسون عن نمو (الأنا) ووظائفها نقلة كيفية هامة داخل الإطار العام للتحليل النفسي، حيث تحوّل التركيز من الـ(هو) إلى (الأنا) كأساس للسلوك الإنساني باعتبار (الأنا) بنية مستقلّة من أبنية الشخصية لا تتحدد وظائفها فقط بمحاولات تجنب الصراع بين الـ(هو) و(الأنا الأعلى) ومطالب المجتمع، لكنها تطلع أيضًا بمهامَّ مركزية أخرى تتمثّل في إحراز الهوية وتحقيق السيطرة Mastery في التعامل مع الواقع الخارجي. فضلًا عن أنها تتخذ مسارًا للنمو الاجتماعي التوافقي يوازي مسار نمو الـ(هو) الغريزية بما يوحي بإيمان أريكسون بعقلانية الإنسان على خلاف (فرويد)[1]. الأمر الذي لفت انتباهه إلى ضرورة دراسة جذور (الأنا) في البيئة الاجتماعية، وبالتالي فعند دراسة نمو هوية (الأنا) لابد من الأخذ في الاعتبار دور الثقافة المجتمعية. Erikson, 1975 فالمعطى البيولوجي، والتنظيم الشخصي للخبرة، والمحيط الثقافي الاجتماعي كلها متغيرات هامة تتعاون لتعطي معنى، وشكلًا، واستمرارية للوجود المتفرد للشخص (Kroger, 1996, 16) بقول آخر، لا يمكن فهم النمو إلا عبر التفاعل بين الحاجات البيولوجية، وتنظيم الأنا، والسياق الاجتماعي.

وهكذا، يؤكد «أريكسون» على أهمية المجتمع الأوسع الذي تنمو فيه (الأنا) ليحل محل المثلث الفرويدي الشهير: الطفل الأم - الأب. بالإضافة إلى العلاقة التبادلية بين الفرد والمجتمع بوصف التطور عملية ارتقاء في تنظيم العلاقة بين حاجات الفرد وإمكانيات المجتمع لإشباع تلك الحاجات وهو ما جعل أريكسون كما يرى أحمد فائق (١٩٨٢، ١٧٧)- يتخذ موقفا وسطًا بين الاتجاه التحليلي العيادي لتقسيم مراحل التطور وبين الموقف الأنثروبولوجي في النظر إلى علاقة الفرد بالمجتمع.

---

[1] رغم اختلاف أريكسون الواضح عن النظرية الفرويدية؛ إلا أن هناك نقاط التقاء مهمة بين النظريتين تتمثل في اعتبار النمو يمر بمتتالية مراحل لا تتغير لدى جميع أفراد النوع، إضافة إلى التزام أريكسون بالمسلمات الرئيسة في التحليل الكلاسيكي مثل الجنسية الطفلية، والصراعات اللاشعورية، والأسس البيولوجية الغريزية للشخصية، والنموذج الفرويدي الخاص ببنيان الشخصية (الهو، الأنا، الأنا الأعلى)...إلخ.

ويرى أريكسون أن نمو الإنسان يمر بمتوالية من ثماني مراحل[1] تظهر في ترتيب لا يتغير لدى البشر كافة، وتنشأ كل مرحلة بموجب فرضية التخلق المتعاقب Epigenesis وهي فرضية مشتقة من علم الأجنة Embryology تقول بأن «النمو يتم عبر سلسلة من المراحل التشكلات المتعاقبة؛ حيث كل شيء ينمو طبقا لخطة أساسية، ووفقا لهذه الخطة تنمو الأجزاء، ولكل جزء توقيته الخاص في النمو.. حتى يكتمل نمو الأجزاء كلها ليتكون في النهاية الكل الوظيفي الواحد» (Erikson, 1968,92) وهكذا فكل مرحلة تمثل فترة حرجة Critical Period تتميز بإلحاح نوع خاص من الحاجات لا يسبق لها وجود في مرحلة سابقة ولا يلحق لها وجود في مرحلة تالية على نفس الصورة (أحمد فائق، ١٩٨٢، ١٧٧).

وكل مرحلة تنطوي على أزمة نفسية اجتماعية تنشأ نتيجة نمو استعدادات الفرد (النضج الفسيولوجي) وضغوط المجتمع (Erikson,1980,130)، وقد أطلق أريكسون على مراحل النمو المختلفة تسميات من واقع الأزمة الخاصة بكل مرحلة ونوع الحل الذي تنتهي إليه صراعاتها بدلا من التسميات الشهيرة حسب المناطق الشبقية[2] إذ تطوي كل أزمة على صراع ثنائي القطب BipolarConflict يتمخّض دومًا عن نتيجتين متقابلتين إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، فإذا تم حل الصراع على نحو مرضي استدخلت (الأنا) ضمن بنيتها البعد الإيجابي وصار ذلك مؤشّرًا يمكن التنبؤ من خلاله بقدرة (الأنا) على مواجهة أزمات النمو التالية، أما إذا استمر الصراع أو لم يستطع الفرد معالجته على نحو طيّب فإن ذلك يضرّ بنمو (الأنا) التي تستدخل عندئذ البعد السلبي ويضعف من قدرتها على حل الصراعات التالية. غير أن الاحتمالات النهائية لكل مرحلة لا تتطلب حلولًا من قبيل إما – أو، لكنها تتطلب توازنًا Dynamic balance بين الأبعاد الإيجابية والسلبية للصراع.

---

[1] ركز أركيسون على نمو الشخصية خلال دورة حياة الإنسان كلّها، وحدد ثماني مراحل تعتبر عامة تميز النوع الإنساني، وعلى عكس فرويد الذي توقف عند مرحلة المراهقة كسقف للنمو افترض أريكسون أن هناك مراحلَ أخرى تلي المراهقة، وتمتد بالإنسان حتى الشيخوخة، وبذلك فنظرية أريكسون من النظريات القلائل التي أكدت أن النمو يشمل المدى الكلّي لحياة الإنسان.

[2] إذ يرى أريكسون أن متوالية الإحساسات (المراحل) الجسمية التي حددها فرويد تنعكس أيضًا في متوالية من الخبرات الاجتماعية، والوجدانية داخل الإطار الثقافي الخاص؛ فالمرحلة الفميّة (مرحلة التغذية) مثلًا هي أيضًا مرحلة قد ينجح فيها الرضيع، أو يفشل في تكوين الشعور بالثقة Trust feeling في الشخص القائم بالرعاية...إلخ.

وهكذا فالأزمات الخاصة بالمراحل المختلفة تمثل تحدّيات رئيسية على (الأنا) قبل أن تتمكن من الانتقال من مرحلة إلى أخرى على طريق النمو؛ وتتحد الشخصية في سوئها ومرضها بالكيفية التي تمّ بها معالجة هذه الأزمات النمائية باعتبار أن كل مرحلة من مراحل النموّ تمثل أساسًا تكوينيًّا إما أن يعوق أو يسهل من مهمة (الأنا) في المراحل اللاحقة. وعليه، وكما هي الحال عند «فرويد»، تتأسس كل مرحلة من مراحل النمو على نواتج المرحلة السابقة وتشملها في ذات الوقت. غير أننا لا نستطيع أن نغفل الاتجاه التفاؤلي الجدلي عند أريكسون مقارنة بفرويد إذ ينظر للإنسان باعتباره دومًا حركة إلى الأمام في محاولة للنمو ومواجهة التحديات بما ينطوي ضمنًا على إيمانه بإمكانية تغيير البناء النفسي وضرورة التركيز على عوامل الصحة، حيث كل مرحلة تحمل إمكانيات القوة والضعف وحيث فشل (الأنا) في مواجهة أزمة مرحلة ما لا يعني فشلًا دائمًا في مواجهة الأزمات التالية، فالحياة قوامها التغير المستمر.

وفي اتجاه تأثير العوامل الثقافية في نمو وتشكيل الشخصية الإنسانية، نجد أن هناك من ينادي بوجود «طراز أساسي للشخصية» أو «تكوين أساسي للشخصية» تحدده ثقافة المجتمع، ومن هؤلاء «لنتون» و «كاردنر» وإن كان الأخير قد قبل بالمقولات الفرويدية، واعتبر أن الثقافة محدد لكيفية النمو، وأن الاختلافات الثقافية محددات هامة للشخصية بسبب الطريقة التي تختلف من ثقافة إلى أخرى، والتي تيسر أو تعرقل النمو النفسي الجنسي. وتشابهًا مع التكوين الأساسي للشخصية نجد مفهوم الخلق الاجتماعي عند فروم والذي أكد بدرجة أكبر من كاردنر على أهمية النواحي الاجتماعي، الذي يتكوّن لمحاولة الأفراد مواءمة طرق إشباع حاجاتهم مع ما يسود المجتمع من أساليب تكوّنت بتأثير ذلك التكوين المعقّد من العوامل التاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، وهذا هو ما يؤدي إلى تشابه الأفراد في ثقافة معينة. (أحمد عبد العزيز سلامة، عبد السلام عبد الغفار، ١٩٧٠، ١٥٢)

من ثم، فإن الشخصية تتحدد بموجب القوى الثقافية الخاصة بمجتمعٍ ما، إلى حد اعتبارها محصّلة الثقافة، كما أن أهمية التمايزات الثقافية ليس بسبب أنها تيسّر أو تعوق النمو النفسي الجنسي كما ذهب كاردنر ولكن لكونها تحدد المناخ العام الذي يحدد بدوره أو يؤثّر في كيفية إشباع الحاجات الإنسانية النابعة من ظروف وجود الإنسان. هذه الحاجات ليست بيولوجية أو وراثية لكنها حاجات إنسانية وموضوعية خالصة، خلاصة القول: إن فروم - وهو يرفض النظرية النفسية الجنسية- كان أكثر تركيزًا على أهمية القوى الثقافية داخل مجتمعٍ ما في نمو وتشكيل الشخصية حسب الفرص التي تهيئها هذه القوى للإشباع المرضي للحاجات الإنسانية كالحاجة إلى الانتماء والتعالي والارتباط بالجذور والهوية والأطر التوجيهية.

إلا أن تصور فروم، كذلك التصورات المشابهة، تصوّر مبسّط للغاية، يمكن أن يثير انتقادات، فنحن نجد تباينات كبيرة بين أفراد الثقافة الواحدة كذلك بين أفراد الجماعة الواحدة، ربما كانت تحليلات أو تصوّرات الخلق الاجتماعي أو الطراز الأساسي للشخصية مناسبة -إلى حد ما- في المجتمعات القبلية أو غيرها من المجتمعات البسيطة. إلا أن هذا الافتراض -ولو سلمنا بصحته- يصعب تصوّره في المجتمعات المعاصرة المتباينة المعقدة التركيب، ولابد من الأخذ في الاعتبار عن تصوّر النمو النفسي ليس فقط الجوانب الثقافية ولكن أيضًا البناء النفسي للفرد بوصفه كائنًا غير آليٍّ، أو مستقبلًا سلبيًّا للبصمة الثقافية، كذلك لا يمكن أيضًا أن نغفل العوامل البيولوجية إلى هذا الحد عند أصحاب نظرية الطابع القومي أو الطراز الأساسي للشخصية، إلا أن ذلك لا يمنعنا أن نتابع التحليلات البيولوجية والثقافية على نحو ما بدأنا.

ومن الممكن أن نجد اهتمامًا كبيرًا بالمحددات الاجتماعية للشخصية لدى علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي الذين أكدوا على مفهوم الدور الاجتماعي Social role، مع تحليل

من الاهتمام بالعوامل البيولوجية التي شدّد عليها فرويد والفرويديون الجدد وفيما يلي استعراضًا سريعًا لهذا التوجه الاجتماعي في تصوّر الشخصية في ضوء نظرية الدور الاجتماعي: ويعرِّف جوردون أولبورت الدور بأنه: «ما يتوقّعه المجتمع من الفرد الذي يحتلّ مركزًا معينًا داخل الجماعة» (في: **زينب القاضي، ٢٠٠١، ٨٣**).

كما تعرِّفه ماكوبي (Maccoby, 1980) بأنه مجموعة من الحقوق والواجبات والالتزامات والسلوك المتوقّع (في: **ممدوحة محمد سلامة، ٢٠٠٤، ١٦١**) وبشكل أكثر دقة يعرفه لنتون Linton -كما ذكر صلاح مخيمر- بأنه جملة النماذج الثقافية المرتبطة بوضع اجتماعي معين، وتشتمل هذه النماذج على اتجاهات وقيم وسبل سلوك معينة تصدر عن الشخص مرتبطة بوضعه الاجتماعي. ولكل شخص دور يتناسب مع وضعيته الاجتماعية أو المكانة التي يشغلها في إطار الحياة الاجتماعية، ويتمّ تعلّم واكتساب هذه الأدوار من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية في تحديد الأدوار على عملية التعليم القصدي (كأن تلقن الأنثى مثلًا طريقة الكلام أو السلوك أو الرداء الذي يتناسب وعمرها وكونها أنثى).

كذلك تعتمد على عمليات الإثابة أو العقاب أو الاستهجان للسلوك الملائم أو غير الملائم للدور، كذلك يمكن تعلّم سلوك الدور من خلال الملاحظة، وأيضًا عن طريق التعلّم العَرَضي (بالصدفة).

ومن خلال ما يقوم به الأفراد من أدوار متعددة، فإنهم يعبرون بذلك عن ثقافة مجتمعهم، ومن ناحية أخرى يمكن النظر إلى هذه الأدوار الاجتماعية بوصفها منظّمة للثقافة، وبوصفها تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع.

ومن خلال ما يقوم به الأفراد من أدوار متعددة، فإنهم يعبرون بذلك عن ثقافة مجتمعهم، حيث إن ثقافة المجتمع هي المحدد الأقوى للأدوار، والفرد حين يتفاعل مع الآخرين فإنه يتفاعل على أساس دوره الاجتماعي، ومن ثم يمكن النظر إلى التفاعلات الاجتماعية على كونها تفاعلات بين أدوار اجتماعية وما يتمخّض عن ذلك من محصّلات

تسهم في صياغة البناء النفسي. وعلى ذلك، وكما يُشير ريتشاردس. لازاروس، فإن الكتاب الذين ينظرون إلى الشخصية في ضوء نظرية الدور والتفاعل بين الذات والدور يرون أن الوحدات الأساسية للتحليل هي التفاعل بين الناس وإثارة هذه التفاعلات على نمو الشخص، مثل هذه التفاعلات تحكمها إلى درجة الأدوار الاجتماعية المنظمة للثقافة، فالمؤسسات الاجتماعية تصنّف كيف يجب أن يسلك الشخص (أنماط الدور) وكيف يجب أن ينظر إلى نفسه (**ريتشارد س. لازاروس، مرجع سابق، ٢١١**).

وإذا كان مفهوم الدور الاجتماعي يساعد في تصوّر الشخصية، كما يفترض أصحاب نظرية الدور، فإن ذلك لا يمنع من ذكر الانتقادات التي أثيرت حول مفهوم الدور:

- غموض الدور بمعنى عدم وضوح التوقعات الخاصة أو المتعلقة بمكانة معينة، وخاصة في المجتمعات المعقّدة.
- التركيز على الجانب الاجتماعي في التنشئة الاجتماعية، في حين أغفلت الجوانب الأخرى لا سيما الجانب النفسي (**فهمي سليم العزوى وآخرون، مرجع سابق،١٩٤، ٢٦٣**).

إن نظرية الدور تهتم إلى حد كبير بالمحددات الاجتماعية للشخصية بينما لا تولّى اهتمامًا للتأثير البيولوجي المحتمل إذ تقصتر تحليلاتها على المستوى الاجتماعي فقط وإن كان ينبغي أن تضع في اعتبارها التفاعل بين البيولوجيا والثقافة في نمو الشخصية.

وختامًا ليس بإمكاننا الفصل الحاد بين البيولوجيا والثقافة، أي ليس بإمكاننا أن نقرر أن هذه أو تلك فقط هي المسؤولة عن تشكيل الشخصية، فإذا كنا قد فصّلنا في العرض السابق هذه عن تلك، فإن ذلك بقصد التبسيط، إلا أن واقع الأمر لا يمكّننا من الفصل بينهما؛ بسبب التداخل الموجود بينهما، والذي لا يمكن إهماله كل منها، وإن كان ذلك أمرًا يصعب تحقيقه. بإيجاز، الشخصية ليست دالة البيولوجيا فقط أو الثقافة فقط، لكنها جماع التداخل والتفاعل المتشابك بينها معًا.